الباب الأول

العصور القديمة

حضارات ودول كثيرة قامت فى العصور القديمة ، مثال ذلك ما شهدته أرض الهند والصين وشبه الجزيرة العربية ومصر والشام والعراق واليونان وايطاليا · وقد قامت هذه الحضارات على نظريات وأساليب وفلسفات تربوية معروفة سنختار من بينها نموذجين اثنين ، الأول شرقى ، فى مصر الفرعونية ، الثانى غربى فى بلاد اليونان ·

الفصل الأول

مصر الفرعونية

يقسم تاريخ مصر القديمة الى ثلاث دول : الدولة القديمة . والوسطى ، والحديثة · عاش الاقوام حول شاطىء النهر منقسمين أقساما . ولكل قسم شعار واحد ورئيس واحد واله واحد . حتى جاء وقت اتحدت فيه بعض الأقسام مع بعضها البعض، ثم تكونت مملكتان: احداهما فى الشمال والأخرى فى الجنوب ، ويعزى الى مينا ـ وهو شخصية ما زال الغموض يحيطها ـ أنه وحد القطرين . وأسس عاصمه له فى منف . وأعلن قانونا عاما أوحى اليه به الاله توت ، وبدأ عهد الأسرات فى مصر القديمة ·

واستمرت الدولة القديمة من ٣٥٠٠ ق·م الى ٢٦٣١ ق·م وشملت الأسر من الأولى الى السادسة . وأعقبتها فترة من الفوضى ·

وجاءت الدولة الوسطى (٢٣٧٥ ق·م الى ١٨٠٠ ق·م) وشملت الأسر من الحادية عشرة الى الرابعة عشرة · وكان من أشهر ملوك الدولة الوسطى أمينمحيت الأول مؤسس الاسرة الثانية عشرة ، وفى عصره ازدهرت الفنون وبلغت درجة من الاتقان لم تبلغها من قبل · ومن مشاهير ملوك الدولة الوسطى أيضا سنوسرت الأول الذى حفر قناة تصل بين النيل والبحر الأحمر ، وصد هجمات النوبيين ، واستطاع سنوسرت الثالث من بعده أن يخضع فلسطين لمصر · وانتهت الدولة الوسطى بفترة من الفوضى والنزاع على الحكم حتى غزا مصر الهكسوس · واستطاع هؤلاء الرعاة الأسيويون أن يقضوا على الكثير من مظاهر الحضارة المصرية · كما حرقوا مدنا ونهبوا ثروات كثيرة ·

وبطرد الهكسوس على يد أحمس ، بدأ عصر الدولة الحديثة ، أو عصر الامبراطورية ، ويشمل الأسر من الثامنة عشرة الى العشرين (١٥٨٠ ق·م الى ١١٠٠ ق·م) ·

الديانة والفلسفة :

قدس المصريون القدماء الحيوانات ، ويقـــول ماسبيرو أنه عندما عاش المصريون فى زمن ما قبل التاريخ منقسمين الى أقسام ، اتخذ كل قسم حيوانا يطعمه الى جانب الاله الخاص به ، وقد قدس كل قسم حيوانه اما رهبة منه فيتقى شره ، أو رغبة فى استرضائه لمـــا يجلبه له من خير ، فقد قدسوا التمساح والأسد ، كما قدسوا العجول والكباش · أما فى العصور التاريخية فقد آمن المصريون بأن الحيوانات التى عبدوها قد حلت فيها أرواح الآلهـــة التى كان عليها أن تسكن جسدا تتجسد فيه عند هبوطها الى الأرض ، فالنسر مثلا لم يكن هو نفسه هوروس الاله ، ولكنه مأوى لبعض أسرار هوروس(١) على أن عقيدة التجسد هذه لم تقتصر على تجسد الاله فى حيوان ، فتارة تجد هوروس متجسدا انسانا له رأس نسر ، أو نسرا له رأس انسان ، ثم أحل المصريون القدماء روح الاله فى أكثر من حيوان · فتارة فى عجل ، وأخرى فى تمساح ، وثالثة فى قطة ، ورابعة فى طائر ، وتطور الأمر الى أن أصبحت العبادة لا تقتصر على حيوان واحد من بين القطط مثلا ، ولكنهم عبدوا القطط جميعا ·

وآمن المصريون القدماء بأن هذه الحيـــوانات التى عبدوها تعلم الغيب وتثيب وتعاقب ، بل انها تتكلم لتنقـــذ شخصا على وشك الهلاك · وكمـــا تكلمت الحيوانات المؤلهة والطيور ، فقد تكلمت بعض النباتات كالأشـــجار التى حلت فيها أرواح الآلهة ·

وعبد المصريون شجرة الجميز والنخلة · وقدموا للشـــجر قرابين من الخيار والعنب والتين · ثم ارتقت بعد ذلك هذه العقيدة وتقدمت فى مسـار الفلسفة وذهب فرعون مصر الى أنه صـــورة مجسدة للاله العظيم ســـيد السماء · وبتألية الفرعون حبا أصبحت عليه التزامات ، لعل أهمها مباشرة الطقوس الدينية اليومية حتى يستمر النيل فى مده مصر بالحيـــاة ، وحتى يستمر الزرع ينبت والشمس تشرق وتغرب · وعبد المصريون الفرعون حيا حتى كان أشدهم قربا منه وأكثرهم حظوة ينال شرف شم قدمى الفرعون · وذهل المصرى القديم عندما وجد الملك يموت ·· الاله حق عليه ما يقع لكل انسان · وقد ظنوه خالدا ··· وأفتى الكهنة أن الفرعون لا يموت كما يموت

---

(١) محمد غلاب ، الفلسفة الشرقية : ص ٣٢ ·

الناس ، فاذا ما عجز جسمه المادى عن القيام بالأنشطة العادية يخرج منه السر الالهى أو الروح المقدس ليحل فى جسم ابنه الشاب الممتلىء حيوية · على أن الفرعون بعد موته يظل ينصح ابنه الحى ، ويوجهه فى أمور الحكم من مكان اقامته فى مملكة الموتى ، مملكة أوزوريس · وكان المفروض أن تعود الروح - متى شاءت - من عالم الموتى الى عالم الأحياء من خلال شرجة فى القبر ، فتخرج ثم تعود الى الجسد الذى يجب أن يكون دائما مهيأ لاستقبالها ، ولذلك عنى المصريون أشد العناية بالتحنيط ، ثم صنع التماثيل والا تاهت الروح وتشردت اذا حل التحلل بالجسد · وكان الطريق الى مملكة أوزوريس تحت الأرض محفوفا بالكثير من المشاق والمخاطر ، فكان الدخول اليها عسيرا حتى على الفرعون نفسه ·

وظهر فى نهاية الدولة القديمة اله من مدينة الشمس (هليوبوليس) صارت له السيادة بفضل تحالف كهنته مع ملوك منف · وسمى هذا الاله « رع » ·

ودانت السلطة لرع ، ولكن فى نهاية الأسرة السادسة ، كان حكام الأقاليم قد نجحوا فى التمرد على سلطة الفرعون ، وعلى رع . وأخذ كل منهم يعبد الها محليا فخمه وعظمه ومنحه أرقى الالقاب وأسماها ·

وكان هناك اله محلى صغير هو آمون اله طيبة ، وعندما تولى عرشها ملك جرىء قوى (أمنمحت الاول) فرض اله مدينته على مصر كلها ، غير أن الفرعون الشاعر أمنحتب الرابع لم يعجبه التعدد فى الآلهة ، وهذا الهذيان العقائدى ، فخرج على البشرية بدين جديد ، بدأه بسحق عقائد آمون كلها واضطهاد كهنته ، بل أنشأ عاصمة جديدة لالهه الجديد « آتون » وغير اسمه الى اخناتون بدلا من اسمه السابق المنتسب للاله آمون · واخناتون تعنى « آتون راضى » · ورأى اخناتون أن الهه رب الأمم كلها، وآتون الشمس مصدر الضوء ومصدر كل حياة على الأرض ، وبنى عاصمة جديدة أطلق عليها « اخيتاتون » أى مدينة أفق آتون ·

وكان أول داع للتوحيد عرفته البشرية مؤمنا كل الايمان بعقيدته ، ولكن فى تعصب طاغ على غيرها من العقائد · ومات الملك الشاعر فى الثلاثين من عمره عام ١٣٦٢ ق·م· وخلفه بعد عامين توت عنخ آتون الذى غير اسمه الى توت عنخ آمون ، وأعاد عاصمة الملك الى طيبة · وأزيلت آثار آتون وأخناتون الذى كان يسمى حينئذ « المجرم الأكبر » ·

وبدأت مصر تستعيد أمجادها وتمتلىء خزانتها بالأموال ويعود لاقتصادها ازدهاره ولمجتمعها تماسكه وصلابته ٠

وفى عهد رمسيس الثالث بدأ يعود النزاع المرير على الثروة والسلطة بين رجال الدين والفرعون ٠٠ وشارك الكهنة فى استنزاف ثروات الدولة على حساب طبقات الشعب الكادحة ، وبلغت سلطة الكهنة أن تولى أحدهم الحكم ، وتحولت الامبراطورية المصرية الى حكومة دينية يفتعل الدين فيها ما شاء له الهوى ، وباسم الدين والكهنوت تقلصت الحياة ، وبدأ معين الثروات ينضب وتزداد البلاد فقرا فلم يكن الكهنة على مقدرة سياسية أو عملية تتيح لهم الابقاء على الثروات ٠

وبينما مصر تهوى تدريجيا ، كانت شعوب فى غرب وشرق آسيا ٠ وشرق البحر المتوسط تنمو ، مثل الهند والصين وبابل وأشور وفارس وفينيقيا وسوريا وفلسطين ، كما بدأت معالم الحضارة تطل على جنوب شرقى أوروبا ، فاستولى الدوريون على جزر بحر ايجه وكريت ، وازدهرت التجارة مع بلاد جنوب أوروبا كايطاليا وأسبانيا ، ثم بدأت أمواج من الغزو الخارجى تدق أبواب مصر ، فغزاها الليبيون من الغرب عام ٩٤٥ ق٠م٠ والأحباش من الجنوب عام ٧٢٢ ق٠م٠ ، والأشوريون من آسيا عام ٦٧٤ ق٠م٠ ثم الفرس من الشرق عام ٥٢٥ ق٠م٠ ثم الاسكندر المقدونى من بلاد الاغريق عام ٣٣٢ ق٠م٠ ، ثم تحولت مصر مزرعة كبرى للقمح تعمل لحساب روما فى عام ٣٠ ق٠م٠

الحياة الاجتماعية فى مصر الفرعونية :

لم يكن فى مصر الفرعونية نظام طبقى كما عرف فى الهند ، ولم يتحكم ميلاد الفرد فى وضعه فى طبقة معينة لا يستطيع الخروج منها ، ومع ذلك فقد عهدنا طبقية ، ولكنها مفتوحة الا من الانتساب لأسرة الفرعون الذى ألهه المصريون فى أوقات من تاريخهم ٠

وعلى رأس المجتمع المصرى القديم كان الفرعون المؤله وعائلته وكبار رجال البلاط ٠ وتأليه الفرعون أعطاه الحق فى حكم الناس الذين وجبت عليهم طاعته وتقديسه ، والفرعون هو مصدر الحكمة والمعرفة(١) ٠

---

(١) I.N. Thut : The Story of Education, pp. 73-74.

ويلى هذه الطبقة ، الكهنة وبعض النبلاء ، وهم يكونون الارستقراطية الاجتماعية والفكرية فى مصر ، ومن كبار هذه الطبقـــة القواد العسكريون خصوصا فى العصور التى حققت فيها مصر نصرا عسكريا · وقد كـــون العسكريون طبقة تلت مباشرة الكهنة · ثم نجد طبقة من كبار التجار وأصحاب المهن الأثرياء ، وهؤلاء كونوا الطبقة المتوسطة ، ثم تأتى طبقة قوامها الحرفيون والرعاة والفلاحون والعبيد · وتكون هذه الطبقة الأخيرة السواد الأعظم من سكان مصر ، ولم يترك لنا أفراد هذه الطبقة ما يستدل به على نظام حياتهم الا القدر اليسير ، فلم يكن معقولا أن تحوى قبورهم ، فى تواضعها الشديد آثارا · وتوجد فى داخل الطبقة الواحدة درجات ، فالكهنة لم يكونوا كلهم فى درجة واحدة لا من حيث المركز ولا من حيث الثراء · وكان عدد سكان مصر حوالى سبعة ملايين نسمة ·

وكان التفاوت واضحا بين حياة علية القوم وسواد الشعب ، تفاوت فى الملابس والغذاء والسكن ، ثم وقت الفراغ · وكان من الممكن أن ينتقل فرد من طبقة الى أخرى ، كما بينت سابقا · ولكن بعد جهد كبير · وقد نالت النساء منزلة مرموقة فى المجتمع المصرى القديم ، فقد تساوت النساء مع الرجال فى الطبقة الواحدة التى ينتمون اليها · وكانت الهة منهن عبدها الشعب · بل ان فى عقود الزواج شرط طاعة الزوج لزوجته ، كما كانت النساء يمتلكن ويورثن ·

كان المستوى الأخلاقى عاليا : وقد روعى هذا بدقة ، كما تنبئنا بذلك الكتابات الأدبية وما خلفه المصريون من عديد من الحكم والنصائح · ففى بردية موجهة الى الأطفال : « ينبغى لك ألا تنسى أمك ··· فقد حملتك طويلا فى حنايا صدرها وكنت فيها ثقيلا ، وبعد أن أتممت شهورك ولـــدتك ثم حملتك على كتفها ثلاث سنين طوالا وأرضعتك ثديها فى فمك ، وغذتك · ولم تشمئز من قذارتك · ولما دخلت المدرسة وتعلمت الكتابة كانت تقف فى كل يوم جانب معلمك ومعها الخبز والجعة جاءت بها من البيت » ·

التربية فى مصر القديمة :

نظرا لتعقد المجتمع والحياة المصرية القديمة ، كان لابد للمصرى أن يتقدم خطوات أبعد من الاجراءات التربوية البسيطة التى كانت موجودة فى مجتمعات أقل فى المستوى الحضارى · ولتعقد الحيـــاة المصرية القـــديمة لم يكن من

المستطاع أن يكتسب الفرد الخبرات اللازمة لخلقه عضوا فى المجتمع من مجرد عمليات تقليد الكبار · ولهذا فان تعليما ونظاما مدرسيا معينا كان لابد من وجوده · وفتحت مدارس ومعاهد علمية ، طرق أبوابها التلاميذ ليكتسبوا الخبرات الثقافية والتكنولوجية اللازمة لمجتمع ضرب سهما وافرا فى التقدم الحضارى وخاصة فى ميدان الصناعة · على أن غرض المدارس بصورتهـــا النظامية كان أكثر اهتمامه بالأمور المتعلقة بتعلم اللغة والأدب وأيدولوجية الدولة · وقد أخضع الكهنة لنفوذهم الفنون والحرف تعلم فى المدارس لكل من يريد تعلمها ، بل تدخلت طبقة الكهنة فى الحد من دارسى الرسم والنحت والفن المعمارى والقانون والطب والهندسة ··· الخ · وقصد الكهنة من ذلك الى ربط الفنون والمهارات بعجلة التقدم الحضارى فى المجتمع المصرى القديم ، فهم المسيطرون على توجيهها وتحديدها بل عمل الكهنة بسلطاتهم الواسعة المطلقة على صهر الاتجاهات العلمية والفنية والحرفية فى بوتقة التقاليد التى كانوا هم أنفسهم يوجدونها ويعملون على تنميتها · وكان الخروج على التقاليد كفرا وزندقة ، بل ثورة على الاله ·

غرض التربية :

كان غرض التربية كما ظهر فى التعليم النظامى فى المدارس يهدف الى تنمية ثقافية ، وتنمية مهنية ، وكانت هنـــاك فنون وحرف كثيرة جـــدا (بالقياس الى غير مصر من الدول فى ذلك الوقت المبكر من تاريخ الانسان المؤرخ) وكانت فى أيدى جماعات من الكهنة يحتلون درجـــات دنيـــا من طبقتهم ، ولنا أن نتوقع سيطرة الكهنة ، فكان جل عمـــل هؤلاء الفنـــانين والحرفين فى الأهرامات والمعابد والمقابر ، أى حيث يدفن الفرد فى انتظار عودة (الكا) اليه · والموت والدفن والبعث أمور من اختصـــاص الكهنة طبعا ·

ونلمح فى التاريخ المكتوب عن مصر القديمة تكوين نقابات مهنيـــة ونشأة (ورش) لصناعة أدوات ومهمات ومعدات الدفن بكميـــات هائلة ، ولعلك تلمح ما للدفن من أهمية فى حياة المصرى القديم ، فقد كانت للموت تجهيزات ومتطلبات عاش عليها عدد كبير من أصحاب الحرف والمهن والفنون، ولاتساع علاقات مصر بدول العالم المعروف وقتئذ والتى كانت بينها وبين مصر صلات ، ولتقدم مصر الفنى والصناعى – فقد انهالت الطلبات عـــلى المنتجات المصرية ، وقد أدى هذا الى نمو التربية المهنية ، وكان هناك فنيون على مستوى عال ، وفنيون يمكن أن نطلق عليهم بالتعبير الحديث ، المنفذين·

وكان للكهنة طبقة أوضحت التفاوت فى درجـــاتهم ، وكان منهـــم المتخصصون فى الطب والمكونون لجماعة الأطباء ، ولم يكن هناك محامون بالمعنى العصرى ولا قضاة ، فكان صاحب الوظيفة الكبرى يحكم فيما يعرض عليه • ومن فئة الموظفين الكبار تكونت جماعة القانون . الذين لهم حظوة عند الفرعون . أما الكتاب الذين يتمثلون فى (الكاتب المصرى) الذى نعهده فى التماثيل والرسوم جالسا القرفصاء ، فكان عـددهم كبـــيرا ، وعليهم مسئولية المحافظة على سجلات الدولة والمعابد وكتابة المراسلات •

ويتضح الاتجاه العملى المهنى فى التربية المصرية القديمة ، لكن فوق كل هذا كان على هذه التربية أن تحافظ على المدنية المصرية بالمحافظة على التراث الثقافى .فهدفت التربية الى هذا عن عمد لتحقيق أغراض محددة •

المنـــاهج :

(أ) القراءة والكتابة : حددت المناهج بحاجات المدنية المصرية ، كما عملت المناهج على تحقيق الأهداف التربوية ، واشتملت المناهج على قراءة وكتابة المخطوطات . وقد اعتقد المصريون أن الههم توت هو الذى اخترع الكتابة ثم علمها لسكان الوادى الأوائل ، والظاهر أن أقدم الكتابات المصرية كانت بعض المعانى مجردة الى حد يصعب تصويرها تصويرا حرفيا ، فقد استعيض عن التصوير بوضع رموز للمعانى ، فمثلا مقدم الأسد يعبر عن السيادة • وفرخ الضفدع عن الآلاف بل ان مجموعة صور كانت تعبر عن لفظ واحد ، فكان الكاتب يقطع الكلمة الصعبة مقاطع ويبحث عن الألفاظ المشابهة لهذه المقاطع نفسها فى النطق والمغايرة لها فى المعنى • ويرسم مجموعة الأشياء التى توحى بها أصـــواتها حتى استطاع فى آخر الأمـــر أن يعبر بالعلامات الهيروغليفية عن كل ما يريد • ثم حدث تطور فاستخدمت الصورة لتدل على حرف ، فالعلامة الدالة على اليد (وهى تنطق بالمصرية القديمة دوت) أصبحت تعنى (د) أيا كان تشكيلها ، والعلامة الدالة على الثعبان تعنى حرف (ز) ••• الخ(١) ، وأصبح هناك أربعة وعشرون حرفا هجائيا انتقلت مع التجارة الفينيقية الى البلاد الواقعة حول البحر المتوسط• هذا ويقول برستد ، ان المصريين عرفوا الحروف الهجائية قبل غيرهم بخمسة وعشرين قرنا(٢) ومع وجود الحروف الهجائية الا أن المصريين لسبب مجهول ،

---

(١) ول ديورانت (ترجمة محمد بدران) : قصة الحضارة ، الجزء الثانى ، ص ٢٠٨-٢٠٩

(٢) J.H. Preasted : A History of Egypt. p, 23,

استمروا يخلطون بين اللغة المكتوبة واللغة العادية التى يتعامل بها الناس فى حياتهم العامة ، ولذلك كانت هناك لغتان ٠

وكانت مهنة الكاتب هى الخطوة الأولى للترقى الى المناصب الكبرى ، فتعلم الكتابة لم يكن سهلا ميسورا اذا عرفنا انها تتكون من ٥٠٠ رمزا ، ولذلك كان الكتاب يعفون من الأعمال اليدوية ، وينالون منحا ملكية ، وينصح أب ابنه ليكون كاتبا فيقول له : « لم أر مطلقا الحداد أصبح سفيرا ، ولا الصائغ مبعوثا ، ولكنى رأيت الحداد يتلظى بالنار أمام الفرن ، وأصابعه كالتمساح ورائحته أقذع من السمك والبيض »(١) ، وفى آراء تاريخية أن المثقفين من المصريين القدماء هم الذين تمتعوا بحريات شخصية ٠

ولاتصالات مصر بالخارج فقد اشتمل المنهاج على تعلم لغات أجنبية ، وليصبح الكاتب قادرا على كتابة مراسلات لأجزاء الامبراطورية المترامية ، وقد استخدم الكتاب ورق البردى المستخرج من نبات البردى الذى كان ينمو على شاطىء النيل ، ولعل كلمة Papyrus هى التى اشتقت منها كلمة paper أى الورق ٠ وكان المصريون يصنعون حبرا أسود لا يتلاشى ، يمزج الصناج والصمغ النباتى بالماء على لوحة من الخشب ٠ أما القلم فكان قطعة بسيطة من الغاب يعالج طرفها ليصلح للكتابة ٠

(ب) الأدب : خلف المصريون ثروة من المخطوطات وما يمكن أن نطلق عليه كتبا مدرسية حوت حكايات خرافية ، وأخبار الرحلات وسيرا شائقة من أعمال مشاهير الرجال ، وأهم الكتب هى : كتب الأمثال ، والتعليم الخلقى ، والمواعظ ، والسلوك الطيب ـ فهذه (تعاليم بتاح حوتب) التى يرجع تاريخها الى عام ٢٨٠٠ ق٠م٠ ، والتى تؤكد أن مصر بدأت الفلسفة الأخلاقية فى العالم ٠ ولعل أقدم ما بقى من الأدب المصرى القديم هو « نصوص الأهرام » وقد نقشت على جدران أهرامات الأسرتين الخامسة والسادسة ، وهى موضوعات دينية ورعة ، وقد حفظت لفافات من البردى فى قواوير ترجع الى حوالى ٢٠٠٠ ق٠م٠ وفيها قصص يراها بعض المؤرخين قريبة الشبه جدا بقصة روبنسن كروزو ، وأخرى شبيهة بسندريلا ٠٠٠ ومن القصص المصرى القديم « سنوحى » و « الملاح الغريق » ٠

---

(١) Mulhern : op. cit. p; 74.

والى جانب دراسة هذا الأدب كان التلاميذ يدرسون الأغانى والأهازيج الدينية . وكانوا يستخدمون الناى والقيثارة ضمن آلات موسيقية أخرى . وكان الأدب الدينى محور الدراسة فى كليـــات المعابد . وبلغ التعمق فيه درجة عالية ٠

(ج) العلوم : وكان على كهنة المستقبل أن يدرسوا الى جانب مناهج الأدب مناهج فى العلوم ٠ ودراسة فى العلوم حتمتها الحياة المصرية وطبيعتها، بحكم اعتماد المصريين على النيل ، وحسابهم الأعياد الدينية ٠ وبنائهم مقابر شاهقة تحفظ جسد الفرعون . ثم تحنيطهم الجثث حتى تعود (الكا) اليها ـ ويرى بعض المؤرخين أنه مع التقدم الذى يثير الاعجاب والذى أحرزه المصريون القدماء فى العلوم . الا أن السحر والخرافات قد أثرا فى امكانية احـــراز تقدم وتفوق أكثر . ويلوح أن السحر والخرافات تدخلا فى كل فروع العلوم الا فى الرياضيات ٠

ويكاد الكهنة يستأثرون بالعلوم ، فكان معظم العلماء منهم ٠ وساعدهم على ذلك فراغ طويل أهلهم للبحث والدراسة ـ بل انهم يرجعون العلوم واختراعها الى الاله توت (تحوت) اله الحكمة فى حوالى ١٨٫٠٠٠ ق٠م٠ حينما حكم مصر ثلاثة آلاف سنة ٠ والثابت تفوق المصريين فى الرياضيات التى ساعدتهم فى بناء الأهرامات . وقياس الأراضى التى كان النيل يغمرها وفى حساب الأوقات ٠

وقد عرف المصريون عمليات الضرب ٠ ويلوح أنهم لم يعرفوا طريقة القسمة فى رأى بعض المؤرخين ٠ وفى رأى آخر أنهم عرفوها ، ولم يعرفوا الصفر واستخدامه ، وكانت معلوماتهم عن الكسور طفيفة ٠ فقـــد عـــرفوا الكسور الاعتيادية ولكن كان بسط هذه الكسور العدد (١) على الدوام ٠ كما عرف المصريون معادلات الجبر من الدرجة الأولى ٠ وقاس المصريون القدماء مساحة المربع والدائرة والمكعب وقاسوا حجم الاسطوانة والكرة ٠

ونظرا لأن الكثير من المعلومات العلمية كانت من الأسرار التى استبقاها الكهنة لأنفسهم ولم يذيعوها ـ فقد أصبح من الصعب الحكم على مدى ما عرفه المصريون القدماء . اللهم الا من المخلفات التى تبرز مدى ما وصلوا اليه من تفوق علمى ، فلا شك أنهم كانوا على علم كثير بالهندسة المعمارية ، مما يثير دهشة المهندسين المعاصرين ٠

أما عن الطب · فصحيح أنه تأثر فى بداية الأمر بالسحر ، الا أن المصريين القدماء توصلوا الى معلومات عن جسم الانسان لم يصلها شعب من شعوب العصور القديمة · كانوا على دراية بالأوعية الدموية ، وأنها تتفرع من القلب ، فسواء وضع الطبيب يده على جبهة المريض أو يده فانه يحس بعمل القلب ، ولكنهم لم يعرفوا الدورة الدموية ، وعرف المصريون مكان الأعضاء فى الجسم ، ولكنهم لم يتقدموا فى تشريح الجسم · وقد استخدموا فى علاج الأمراض الشائعة زيت الخروع والخل والعسل الى جانب تركيبات مراهم ، وقد تركوا لنا بردية فيها قائمة بأسماء سبعمائة دواء لمعالجة أمراض تبدأ من عضة الأفعى الى حمى النفاس ، بل استعمل الأطباء أقماع اللبوس لمنع الحمل · على أن الغريب أن بعض الوصفات كانت تجمع بين الناحيـــة العلمية والسحر ، فتقرأ فى تذكرة طبية عن استخدام دم السحلية ، وأذن الخنزير وأسنانه ، ومخ السلحفاة ، وكتاب قديم مقلى فى الزيت بل وروث الحمير وبراز الكلاب والقطط(١) ·

ونبغ المصريون القدماء فى الجراحة ، وقد عرفوا التخصص فى مهنة الطب ، فكان هناك أطباء متخصصون فى اضطرابات المعدة وأطباء العيون والمتخصصون فى أمراض النساء والتوليد ، وأطباء الأسنان ·

طرق التدريس والنظام :

غلب على تعليم القراءة والكتابة استخدام الأشـــكال التقليـدية فى التدريس وأهمها التقليد والتكرار ، وخاصة اذا علمنا صعوبة تعلم اللغة المصرية القديمة ، أما فى تعلم المهن فقد اتبع نظام التلمذة الصناعية · حتى بالنسبة للكتاب ، فقد كانوا يمضون بعض الوقت فى المكاتب الرسمية · وأما الأدب فكان يعلم بطريقة الحفظ والاستظهار ، وخاصة الأدب الدينى ، وأما مناقشة النصوص الدينية وشرحها فكانت حقا قاصرا على كبار الكهنة · ولذلك فقد اعتمدت طريقة تدريسها على الحفظ الآلى ، وقد أدى هذا الى نوع من الثبات فى التقاليد المصرية القديمة والحياة الاجتماعية ، ووقع العقل أسيرا لقدسية الكلمات التى لو أخطأ المصرى القديم فيها حقت عليه لعنة الآلهـــة وغضبها وكان التلاميذ يكلفون بكتابة مقـــالات عن المعتقـــدات السحرية والخرافية ، ولعل هذا أيضا من أسباب استمرار بقائها ·

وكان النظام فى المدارس قاسيا ، وكان الجلد شائعا اذا ما ارتكب

---

(١) ول ديورات (ترجمة محمد بدران) : قصة الحضارة ، الجزء الثانى ، ص ١٣٥ ·

التلاميذ مخالفة لأوامر أو أهملوا أداء واجب ... بل وصل الأمر الى حبس المخالف مدة وصلت الى ثلاثة أشهر(١) . ويلوح أن المصريين القدماء اعتقدوا فى ضرورة الشدة القاسية فى المتعلمين ، ومع ذلك فهناك شواهد على استخدام النصائح فى التهذيب بدلا من عمليات القمع والتعذيب .

التنظيمات المدرسية :

كان الأطفال يظلون فى حضانة أمهاتهم حتى سن الثـــالثة واعتبر المنزل مدرسة الطفل حيث يتعلم القواعد الأولى للحياة باحتكاكه بوالديه ورفاقه فى اللعب ، وقد عرف الأطفال اللعب ، فكانت للبنات الدميات ، والصبيان لعب على شكل التمساح ، وعندما يصل الطفل الى سن الخامسة يدخل المدرسة حيث يتعلم الكتابة . وكانت المدرسة خاضعة للحكومة التى تمولها وتشرف عليها ، ويبقى التلاميذ فى هذه المدارس الى سن السادسة عشرة أو السابعة عشرة حيث كانوا يدرسون مهنة من المهن ، وكان من الأمور الشائعة أن يغير الطالب مهنة بأخرى ، وتتضمن الدراسة تدريبا عمليا بعد سن الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة ، ويظهر أن الطالب كان يتقاضى بعض الأجر عن عمله فى فترة التدريب ، أما الطلبة الذين يريدون دراسة اللاهوت والمسائل الدينية ، فكانوا يلتحقون بكلية المعبد بعد سن السابعة عشر ، وتتوقف مدة الدراسة على الوظيفة الكهنوتية التى يعد الطالب لها .

وعرف نوع التعليم الذى يطلق عليه التلمذة الصناعية ، فينضم الطالب الى من هو حاذق فى صناعته ، ويتتلمذ عليه ، وكان هذا النوع من التعليم خارج نطاق المدارس بصورتها النظامية .

وتشير نصوص مصرية قديمة الى (الأصطبل الملكى للتربية) ، ويرى البعض أن رئيس هذا (الأصطبل) كان المسئول عن التربية ، ورأى آخر أنه كان مدرسة عسكرية التحق بها أبناء النبلاء ليتعلموا الكتابة والعلوم العسكرية(٢) .

---

(١) المرجع السابق ص ٢٥ Mulhern : op. cit., p. 78.

(٢) Thoms woody : Life and Education in Early Societies, p. 60.

المعلمون :

عهد تعليم مبادىء الكتابة الى موظفين حكوميين ، واليهم عهد أيضا الاشراف على نسخ المواد المكتوبة ، والتى كان الطلبة يقومون بنسخها ، ما فوق هذه الأعمال البسيطة ، كان يعهد الى أفراد من جماعة الكهنة المسئولين عن تدريس الدين والمحافظة على التراث الأدبى والدينى ، كما عهد كذلك الى الكهنة تدريس العلوم والرياضيات ، بل كانت سيطرتهم على التعليم العالى لأبناء الطبقة (الراقية) سيطرة كاملة ٠

ومما يذكر بالفضل أن المصريين القدماء أبقوا للأسرى ثقافتهم ، فقد كانت آلهة مصر لا تمانع فى استمرار وبقاء آلهة الأسرى من الدول التى أخضعتها مصر ٠

ويكاد يتفق كل المؤرخين على أن سيطرة الكهنة على التعليم النظامى قد أعطتهم السيادة على العقل المصرى القديم ، وباتحاد الكهنة مع الهيئة الحاكمة ـ لتحقيق أهداف مشتركة ـ أمكن لثقافة الأمة أن تستمر محتفظة بطابعها دون تغييرات تذكر ٠

الطلبة :

لم يدخل المدارس الا عدد محدود من التلاميذ ، وخاصة فى مراحل الدراسة العليا ، وقد خضع الطلبة لنظام صارم أشاع فى نفوسهم خوفا مستمرا ، ومع ذلك فان بعض الكتابات المصرية القديمة تذكر أن بعض الطلبة انغمسوا فى حياة لا تليق بالخلق الطيب ، وأقبلوا على شرب البيرة والنبيذ بكميات كانت تفقدهم وعيهم ، وكثيرا ما عبر المدرسون عن استنكارهم لموقف الطلبة ٠

ولا يسمح للبنات بالالتحاق بالمدارس ، ولكن بنات الطبقات الاجتماعية الراقية كن يدرسن نفس المناهج التى كان يدرسها الأولاد ٠ لكن على أيدى مدرسين خصوصيين ، ويساورنا العجب لحجب التعليم عن البنت مع ما نالته المرأة فى مصر القديمة من مركز أشرت اليه سابقا ٠

موارد التعليم :

سيطرت السلطات الرسمية والدينية سيطرة كاملة على المدارس وان لم تنص القوانين على ذلك ، بل تحكم العرف فى ابقاء هذه السيطرة ، أما

حيمنة هذه السلطات على تدريب الفنانين والصناع فكانت غير مباشرة ، اذ أن الفن والصناعة خضعا لمتطلبات السلطات الرسمية والدينية ٠

ويلوح أن مصاريف الدراسة كانت قليلة جـــدا سواء في المدارس العامة أو كليات المعابد ، وكان الوالدان يمدان ابنهما بالطعام حتى يصل الى صفوف مهنة الكاتب ، وحينئذ كانت تصرف له وجبات مجانية من المخازن الملكية ، أما كليات المعابد فبحكم ارتباطها بهـــذه الاماكن الدينية فكانت ـ بفضل البذخ فى تقديم الضحايا ـ غنية جدا ، ونعم فيها الطلبة بحياة من الرغد جديرة بالذكر ٠

★ ★ ★

هكذا كانت التربية المصرية حافظة للثقافة وعاملة على استمرار بقاءها ٠ واذا كانت مصر قد حققت تقدما هائلا فى ميادين مختلفة ، فقد يرجع الفضل فى ذلك الى طبقة مختارة كان لديها الوقت والتفرغ والبواعث ما أتاح لها فرص التفكير والانتاج ٠ بل ان التعليم النظامى كان فى أيدى هذه الطبقة توجهه الوجهة التى تريدها ، وبذلك سيطرت على عقول المصريين أجيـــالا طويلة ٠ لقد رأى المصريون مجتمعهم على أنه من خلق الآلهة ، ومن أجل هذا فهو أحسن المجتمعات ولم يدر بخلدهم أن يعبثوا بالتغيير فى هذا المجتمع والا غضبت الآلهة ، ولذلك فشلت محاولة اخناتون فى دعواه للتوحيد ، وكان على البشرية أن تنتظر قرونا أخرى ورجالا أخر لتهضم هذه الفكرة ٠

وفى العصر المتأخر (القرن الحادى عشر قبل الميلاد) بدأ ركب الحضارة ينحول من الشرق الى الغرب قاصدا بلاد الاغريق ، ففتح فراعنـــة الأسرة السادسة والعشرين أبوابهم للاغريق وشجعوهم على الاستيطان بمصر مما أدى الى ثرائهم وازدياد نفوذهم وسيطرتهم اقتصاديا على البلاد ، ولكن ذلك لم يدم طويلا ، اذ دخلت البلاد حظيرة الحكم الفارسى عندما غزاها (قمبيز) سنة ٥٢٥ م ٠ وقد احتمل المصريون الحكم الأجنبى بكل ما عرف عنه من قسوة على مضض ، وثاروا على الفرس عدة مرات كانت الأخيرة منها فى شكل ثورة عارمة تحولت الى حرب تحرير ، وانتهت بنيل الاستقلال فى سنة ٦٠٤ ق٠م٠ ولكن المصريين لم يتمكنوا من الاحتفاظ باستقلالهم طويلا ، اذ لم يلبث الفرس أن عادوا الى مصر مرة ثانية سنة ٣٤١ ق٠م٠ ليحكموها بضع سنوات ثم يدخل الاسكندر الأكبر مصر سنة ٣٣٢ ق٠م٠ ويضمها الى ملكه الواسع ٠ وهكذا ينتهى العصر الفرعونى لنبدأ فترة أخرى جديدة سادت فيها الثقافة الاغريقية ٠